الباب الرابع

في أسباب الاضطراب العالمي

obeikandl.com

obeikandl.com

الاستعمار

إثارة الرغبة في بحث شامل

تناولت موضوع العلاقات الدولية من وجْهة النظر الإسلامية، ولمست نواحي عدة منها، ورجوت من هذا العرض العاجل في كلمات محدودة أن أُثِير الرغبة في القارئين، سواءٌ أكانوا من الأمة الإسلامية أم الأمم الأخرى؛ لبحث مستفيضٍ فيما جاءت به الدعوة المحمدية، لعلّهم يجدون في أصولها وفروعها مخلصًا من محنة المدنية الحاضرة، وذلك الاضطراب الذي أصاب البشرية بحربين شاملتين في مَدَى ربع قرن.

مقاتلون ومحايدون

وإذا نظرنا للعالم الحاضر في الحرب العالمية الأخيرة، وقد عمّ الدنيا شرُّها، نجده ثلاث طوائف: طائفتان تقتتلان، وثالثة تَعْتَزِلُهما ولا تسلَمُ من شرهما.

فماذا يشكو منه الثلاث؟ أما الطائفتان المتحاربتان فكانت كل منهما تدّعي على الأخرى دَعَاوَى لا سبيل لتحقيقها، ولا فائدة من المناقشة فيها؛ فكلٌّ كان يقول: إنه مظلوم معتدًى عليه، وإنه يحارب للحق وإقامة صرح الحضارة، فلندَعْ هذه الدعاوى حقَّها وباطلَها.

وأما الطائفة الثالثة المعتزلة، فبين محايد قد انْتُهِكَت حرُماتُه، وآخرَ شاكي السلاح، ساهِر الليل تَزْخَرُ أرضه بالقوى خشية أن تسْتَبَاح.

فإذا نظرنا إلى أسباب النزاع بين هذه الأمم نظرة إجمالية خلال القرنين الماضيين بدا لنا أنها تتفاقم عصرًا بعد عصر، وقد تكون بلغت الذّروة في الحرب الأخيرة إذ شملت القارات الخمس.

الأسباب الأساسية للاضطراب

فما هي دواعي هذا الشر المتزايد؟ وما هي الأغراضُ العقيمة التي ظلت عصرًا بعد عصر لا تستقر ولا تتحقق؟

أهي الغرام بسَعَة المُلك، والتزاحم على حِيازَة الأمم المستضعفَة والاستئثار بالتصرف فيها وفيما تملك من مواد؟

أم هي النزاع والخصومة، بين الطبقات على المصالح الخاصة والنظم الاقتصادية؟.

أم هي الإفراط في النزعة الوطنية أو العُنْصرية وما يترتب عليها من الأَثَرة وحب الانفراد بالعزّة، ثم إنكار حقوق الآخرين والتسلط عليهم، جيرانًا كانوا أم في أقصى الأرض؟.

أم هي طغيان المادِّيّة وحب الترف، مما ترتب عليه تركيز الاهتمام في جَمْع المال، والانحدارُ في المتاع العاجل كغاية للحياة، فتباعد ما بين طبقات الأمة الواحدة من الفروق، وأُغْرِيَ بعضُها ببعض، وآلَ ذلك إلى النزاع الداخليّ والخارجيّ؟.

أم هي انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادّيّة، مما ترتب عليه تَبَلْبُلُ الأخلاق والعقائد والعُرف الصالح، فضاعت المروءة وقلَّ الإخاء، وفَشَا الاستخفاف بالعهود والمواثيق، وصار الغدر والخديعة من الأخلاق الشائعة في علاقات الأمم، وحلّ الخوف محلّ الأمن، ودأَبَ الناس على الاستعداد للحرب ثم المفاجأة بها؟.

أم هي أسباب أخرى أعظمُ أو أصغر، أم هي هذه جميعًا؟

قد يكون هناك أسبابٌ وحوادثُ كثيرة، لها أثرُها الوقتي، غير أن نظرة فاحصة في الأسباب التي ذُكِرَتْ تَهْدِي إلى الاعتقاد بأن فيها أصولَ الفساد العالَمِيّ، ومسبِّبات هذه الكوارث والحروب الطاحنة.

فهل جاءت الدعوة المحمدية بأسباب وقائية وبعلاج لهذا الفساد؟

ذلك ما سنحاول بيانه.

* * *

الاستعمار أو الخراب

أما السبب الأول الذي أشرنا إليه فيمكن حَصْرُه في كلمة واحدة: هي الاستعمار الحديث، وليس أدلَّ على ما فيه من فساد، وعلى قوة هذه الآفة من أن الحروب لم تكن عامّة إلا بعد ظهوره وانتشاره، وبعد أن انتشَر فشمِل القارّات الخمس، وصار مظهرًا وسببًا للصراع المادي، انقلبت الحروب إلى شرٍّ عام، وبانتشاره تطاولَتْ الأعناقُ إليه، وظنّت جميع الأمم أنه سبيلُ الغنى والقوة، فتسابقت وتحاسدتْ وحقَدتْ، ولم يَصُدَّها عنه أن رأت بعضَها في الماضي وقع فريسة له؛ فلقد كان بعض فرسانه الأُوَل من الإسپان والبرتغاليين والفرنسيين فرائِسَ له. وفي فرسانه الأخيرين بعض العظات.

سبب الحروب في القرنين الأخيرين

والاستعمار سبب معظم الحروب في القرنين الأخيرين، وله أثره فيها جميعًا، واستقصاء البحث في كل منها يرشد إليه في مكان ما من الأرض: في تراث أمّة مستضعفة، أو في أحد المعبودات الحديثة من البترول والذهب والفحم والقطن وغيرها من ثمرات الأرض أو معادنها.

الدعوة المحمدية تنكره

ومن فضل الدعوة المحمدية أنها تنكر الاستعمار، وتحكيم القوة لأغراض دنيويّة؛ فهي لا تبيح الحرب لتوسّع في المُلك، أو الحصول على الموادّ الخامة، أو لاحتكار الأسواق، أو لدعوى تمدين الناس، أو للمواقع الإستراتيجية، أو لاستعلاء وطن على وطن، أو دولة على دولة، أو عنصر على عنصر كي تكون أمّةٌ هي أَرْبى من أمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

وقد أشرت إلى ذلك في كثير من الفصول السابقة، وسُقْت في سبيل بيانه الآيات والأحاديث وأمثلةً من الواقع، ووجهة النظر الإسلامية في العلاقات الدولية واضحة، فالناس سواسية كأسنان المُشْط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

فالإسلام لا يعرف نزاعًا ليس المقصود منه أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون الحرّيات للجميع مكفولة.

لا حجة على الإسلام إلا من نصوصه وسننه

قد يقول بعض الناس إن في تاريخ المُسلمين ما لا يتفق وما تدعو إليه. ونحن ندعو إلى كتاب الله ودينه لا إلى ما فعل بعض الدول والملوك، مما قد يُشْبه من قريب أو بعيد ما يفعل الأوروبيون، وقد باءُوا بالخُسران كما باءَ المحدَثون.

فلا شك أن الاستعمار بجميع أشكاله تأباه الدعوة المحمدية، وقد ثبت الآن بُعدُ نظرها، بل ثبت سموُّها وغرضها الإلهي، بما فعل الاستعمار بالناس قديمًا، وبما يفعل في العصور الأخيرة، وقد اتسع شره وعمّ بلاؤه وجرّ الويلَ والخرابَ في حروب عالمية متعاقبة.

وإنا لنرجو أن يستفيق الناس إلى الهدى، وأن يجدوا في هذا المبدأ المحمدي وسيلة لإقامة العلاقات الدولية على غير ما تقضي به نظريات الاستعمار، وأن تقوم هذه العلاقات على الإخاء، وعلى تلك الروح الدولية الإسلامية التي لا تعرف الجنس ولا اللون ولا الوطنية الضيقة، ولا العلم ولا الجهل، ولا التقدم ولا التأخر، ولا تعرف البشر إلا إخوة من آدم، وآدمُ من تراب.

نزاع الطّبقات

التفاوت قديمًا وحديثًا

نزاع الطبقات ظاهرةٌ للحضارة الأوروبية، وقد فَشَا داؤه وعمّ بلاؤه، والناس منذ النشأة الأولى متفاوتو الحظوظ في هذه الدنيا؛ منهم الفقير والغنيّ، والحاكم والمحكوم، والضعيف والقويّ، والمريض والصحيح، يعيشون متعاونين متفاهمين في حدود القبيلة أو مجموعة القبائل، أو اتحادات القُرَى حول مدينة، أو مجموعات المَدَائِن والقرى حولَ أعظمها؛ فكانوا بطبيعتهم مأخوذين بغريزة الاجتماع والتعاون الذي أدركوه بالفطرة والتجربة.

وكانت هذه المجموعة البشرية كَخَلايا النحل، تتعاون للإنتاج على نظام مقبول من ا لجميع؛ فإن لم يكن مقبولًا عن رِضًا فهو مسلَّمٌ به طَوَاعِيةً وعُرْفًا.

وكان هذا النظام يضطرب ويختلّ أحيانًا بعُدْوان مجموعة أخرى، أو بفسادٍ داخليٍّ ينشأ عن شذوذ أو ظلم بانحرافِ هيئة قوية أو فرد قويّ واستبداده وأثرته، ولا يلبث هذا الاضطراب أن يستقرّ بعودة الأمور إلى نِصَابها، وسَيْر التعاون في الخَلِيّة على مقتضى الغريزة والعرف المتفق عليه.

ولم يعرف الناس نزاع الطبقات عنصرًا للاضطراب والخلل كما هو اليوم، ذلك النزاع الحادّ الدائم بين الفقراء والأغنياء، والعمال والصناع والمُلّاك والمُدِيرين.

أمثلة من التاريخ العالمي

نعم قد نجد في تاريخ البشر دعوات قوية متطرِّفة، كدعوة «المَزْدَكِية» في فارس، وكانت تقول بالمساواة التامَّة في المعاش، ونجد في أعقاب الدولة الرومانية نزاعًا بين العامَّة والخاصَّة، أو بعبارة أخرى بين العبيد والأحرار، ونجد في صدر الإسلام أمثال أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يهجر الشام محتجًا على الثَّراء وملْكية الأرض، ونجد الخوارج يَشْهَرُون سيوفهم ويستبسلون في سبيل الفوضى الاجتماعية، فيقول المتطرفون منهم بأن لا حُكْم إلا لله، وينكر ضرورة الحكومة مُدّعيًا أن في طبيعتها الفساد، وأن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدافع من الدين والوجدان ما يكفي لاستقامة شئون المجتمع، وينكرون حقوق الملوك، وكان المعتدلون من الخوارج لا يُوَرِّثون مَلِكًا مُلْكًا، ولا يؤثرون به بيتًا ولا قبيلة ولا سيدًا على أي أحد من الناس، ويقولون بإمامة العبد ومساواته للقرشيّ والهاشميّ، ويتزهدون ويحملون الناس على الزهد، حتى كادوا يسوّون ما بينهم في المعاش ولو أنهم لم يحرِّموا المِلْك.

رئيت هذه الدعوات على أنها شاذّة، ومع ذلك لم تصل إلى شيء مما وصلت إليه الدعوة الاشتراكية أو الشيوعية، ولا ادّعت ما ادّعتا من المساواة في الرِّزق والكسب والمِلك، ولم تقم على أنها نزاع وصراع طائفة العمال مع غيرها من الطوائف، ولم تصل إلى مثل النزاع الحديث والحروب الدامية بين العمال والطبقات الأخرى.

فهذه الشيوعية، وهذه الاشتراكية التي نظمت الأحزاب «العمّالية»، والاشتراكية والشيوعية لا شك جديدة، وهي أثرٌ مباشر للنظام «الرأسماليّ» الحديث.

وكان الناس على البساطة الأولى متعارفين؛ فالجار الغنيّ صديق جارِه الفقير، يعرفه شخصيًّا ويعرف أولاده، يتصلون جميعًا في شيء من الإخاء، تجمعهم قُرْبى الدم أو قربى الجوار، وشيخ القبيلة أو القرية مهما حسنت حالته المعاشية أو كَبُر جاهه هو شيخ الفقير والغنيّ، موصول الوُدّ بالجميع، وغِناه وثَراؤه لا يتجه للزينة والترف والأَثَرة؛ فَعِزُّهُ في الكرم، وفخره في الإيثار، وأبناؤه على عزتهم ككل أبناء القبيلة أو القرية، يلعبون كما يلعبون، ويَطْعَمون ويلبسون طعامًا ولباسًا يشبه في جوهره ما يأكل الناس وما يكتسون.

فلم تكن دوافع الحسد والغَيْرة تحركها مظاهر التَّرَفِ والبَذَخ الذي يتمتع به الكبراء والأغنياء ويُسرِفون في أَذَى عيونِ الناس وآذانهم ونفوسهم، وكانت كذلك الثروات محدودة وجمهور الشعب في مستوى واحد.

من آثار البخار والكهرباء

فلما استُخْدِمَ البخار والكَهرُباء تضخّمت الثرْوة، واتسع نفوذ أصحابها، وكثر عددهم، وحلّت المحرِّكات الآلية محل اليد، وسَهُل الانتقال، وزادت السرعة في كل شيء؛ فنمت التجارة، ونما المال، وبعدت الشُّقَّة بين الفقر والغنى، فانحطَّ مستوى طبقة الصناع والعمّال، وبَسَمت الدنيا لمُلَّاك الآلة وملّاك الأرض والسماسرة والتجار والمسيطرين على وسائل النقل، وحلّ النظام الرأسماليّ الجديد بكل ما يصحَبُه من جَفاءٍ ازداد به الناسُ بُعدًا في الفِكْر والمظهر، وانقلبوا أعداءً.

الرأسمالية والعمالية

وكان لا بد للطبقة المحرومة، وقد هبطت إلى نوع من العُبُودِيّة للآلة وصاحبها، أن تلتمس لنفسها سبيلًا للحريّة، وقد أحست أنها على كثرتها لا تملك من الأمر شيئًا؛ فاحتقرت دساتيرها، ورأت فيها

وسائل ظاهرُها الرحمةُ وباطنُها العذابُ، تمكّن أرباب المال من التحكّم واستخدام الشُّرطة للغلَب، غلبِ القِلّة المالِكة الضعيفة على الكثرة المحرومة القويّة؛ فاتجهت إلى الثورة، ونظمت لذلك النقابات والأحزاب، وأصبحت هذه عنصرًا أساسيًّا من عناصر الاضطراب العالمي.

وما كادت تنتهي الحرب العالمية الأولى حتى ابتدأت ثورات جامحةٌ وفِتَنٌ دَمَوِية وصلت ضحاياها في الحرب الأهلية الروسيّة إلى عشرات الملايين، وفي الحرب الأهلية الإسپانية التي استمرت نارها أكثر من سنتين إلى مليون، ولم تسلم بقية الأقْطار الأوروپية والأمريكية من فتن دموية، ولا تزال الدعوة تُلْهب غيظ الفقراء على الأغنياء، وطبقةَ الصنّاع والعمال والزراع على الملّاك، وتهيئ الأرض لانفجارات أشدَّ خطرًا في كل مكان.

في الدول الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية

وقد أخذت الحكومات والشعوب في تَلَمُّس العلاج، فذهبت مذاهبَ شتّى؛ فبعضها ذهب إلى استئصال طبقة الملّاك، كما حدث في روسيا، وبعضها إلى استئصال دعاة العمّالية والشيوعية، كما حصل في إسپانيا، وبعضها عوّل على القهر والاستبداد لإقامة الأمن والتوازن، فسلبت الحرية الشخصية، كما حصل في إيطاليا وألمانيا؛ إذ انتزعت الزعامة الدكتاتورية الأمر من يد الجميع.

وفي البلاد الديمقراطية لا تزال الرأسمالية تبسط كف العلاج بالهِبَات للطبقات المحرومة، وتتحايل للمَخْلص، وقَدَرُها لا يزال في السماء!.

ومن الصعب جدًّا في مثل هذا العَرْض السريع أن ندخل في بحث النظام الرأسمالي ما لَه وما عليه، كما يصعب كذلك متابعةُ المشكلة الاجتماعية ومتابعة الأوروپيين والأمريكان فيما يَعْرِضون من حلول، وما يقاسُون من ويْلات نظام الربا والأَثَرَة، وسنكتفي بما ذكرنا معتمدين على معرفة أكثر القارئين لمعضلة النزاع بين الطبقات وأسبابها وآثارها.

ولْننظرْ فيما جاءت به الدعوة المحمدية من قواعد؛ لنرى هل فيها العلاج لمشكلة المجتمع في هذا العصر؟.

البساطة الإسلامية في معالجة مشكلات المال

أول مشكلات المجتمع وأسباب النزاع هو الفقر، وقد بينا في فصلي التكافل والبر كيف عالجه الإسلام، ونورد هنا بعض الحديث الذي يوضح أن الإسلام مرنٌ يسير مع المصلحة العامة في معالجة الفقر الذي هو السبب الأكبر لنزاع الطبقات، وقد اتخذت الشريعة لذلك سبيلين:

الأول: أنها جعلت للمحروم حقًّا الثابت في أموال الناس جميعًا، وأقول جميعًا؛ لأن الحد الأدنى من المال أو المِلْك أو المنتجات الذي تستحق فيه ضرائب الزكاة يستطيعه كل صحيح يعمل؛ فالنِّصَاب في زكاة الفِطْر مثلًا هو ما زاد على قُوتِ يومٍ من خبز الشعير، وقد جعلت فيه الشريعة حقًّا للمحروم.

وقد تنوعت الضرائب الشرعية في أموال الناس لمقاومة الفقر والقضاء عليه، وجعلت هذه الأموال بنص القرآن مخصصة لأصناف المحتاجين، وليس للإمام أن يصرِفها في غير ما خُصِّصَت له.

ولم يبيّن القرآن بالتفصيل ما تجب فيه الزكاة من الأموال، ولا المقدارَ الواجب دفعُه، وقد بينت السنّة ذلك في كتاب كتبه رسول الله ﷺ لمن ولّاهم أمر الصدقات، وبيّن القرآن من تدفع لهم الصدقات فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠].

المبدأ ثابت والتنفيذ مرن

فالقرآن وضع المبدأ والرسول نفذه، والقرآن خصص الزكاة، وعلى الإمام أن يوجهها حسب الحاجة؛ فقد يجد أن ما كان يُنْفَق لتحرير الرقيق أو للمؤلفة قلوبهم أو ابن السبيل معدومًا أو قليلًا في زمننا الحاضر فيوسع في نصيب الفقراء، وسبيلُ الله الذي يدل على معنى عام يجد الإمام فيه أبوابًا كثيرة من البر الذي يوجَّه للمصلحة العامة في كل عصر حسبَ مُواضَعات أهله، كالتأمين الاجتماعيّ الآن مثلًا.

الثاني: لم تكتف الشريعة بهذا الحق المعلوم في أموال القادرين للمحتاجين، بل جعلت الدولة كفيلةً على إقامة التوازن الاجتماعي؛ فرأس الدولة مسئولٌ عن هذا التوازن يعدّله بالزكاة، فإن لم تكفِ فله باسم المصلحة العامّة أن يأخذ من أموال الناس للصالح العام، وعليه أن يقيم العدل بالقسطاس المستقيم.

الشرع مع المصلحة

وحيثما كان هذا العدل فثَمَّ شرعُ الله ودينهُ، فإذا فرض أن هذا العدل يقتضي أمرًا لا نصّ فيه ولا أثرًا شرعيًّا فعليه أن يجتهد برأيه.

مثلان رائعان من حرية تصرف الدولة حسب الظروف

وإليكم مثلين من اجتهاد الإمامين الكبيرين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان أبو بكر يقسِّم المال بين الناس على السواء، لا يفضّل أحدًا على أحد، فقيل له: يا خليفةَ رسول الله، إنك قسّمت هذا المال فسوّيت

بين الناس، فمِنَ الناس أناسٌ لهم فضْلٌ وسوابقُ وقَدَمٌ، فلو فضَّلتَ أهلَ السوابق والفضل بفضلهم؟ فقال: «أما ما ذكرتم من السوابق والقَدَم والفضل فما أعرَفَني بذلك، وإنما ذلك شيء ثوابُه على الله، وهذا معاشٌ، فالأسْوة فيه خيرٌ من الأَثَرَة».

فلما كان عمَرُ وجاءت الفتوح فَضَّل وقال: «لا أجعلُ من قاتَل رسولَ الله كمن قاتَل معه»، وعلى ذلك أسس ديوانَ الجيش، ومع ذلك، فعمر الذي لم يتَّبع الرأيَ الذي يقول بأن الأسْوة في المعاش خير من الأثَرَة هو الذي ترك ظاهر النصوص القرآنية في الغنائم[1]؛ إذ قال لما فتح الله على المسلمين العراق والشام، ردًّا على من أرادوا قسمة الأرض بين فاتحيها والاحتفاظَ بالخُمْس فقط للمصالح العامّة: «فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعُلُوجها[2] قد اقْتُسِمَت ووُرِّثَتْ عن الآباء؟ ما هذا برأْي». فقال له عبد الرحمن بن عوف: «فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم». فقال عمر: «ما هو إلا كما تقول، ولست أرى ذلك، والله، لا يُفْتَحُ بعدي فتحٌ فيكون فيه كبيرُ نَيْلٍ، بل عسى أن يكون كَلًّا على المسلمين، فإذا قسّمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يُسَدّ به الثغور؟ وما يكون للذرّية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق»؟ فأكثروا على عمر وقالوا: «تَقِفُ ما أفاءَ الله علينا بأسيافنا على قوم لم يَحْضُروا ولم يَشْهَدُوا؟! ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم لم يحضروا»؟! فكان عمر لا يزيد على أن يقول: هذا رأيي. قالوا: فاستَشِرْ، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا؛ فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقُهم، وكانَ رأي عثمان وعليٍّ وطلحةَ وابن عمر رأيَ عمر، فأرسل إلى عشْرة من الأنصار: خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا قال: «إني لم أُزْعِجْكم إلا لأنْ تشتركوا في أَمانتي فيما حُمِّلتُ من أموركم، فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تُقِرُّون بالحق، خالَفَني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هَوَايَ، معكم من الله كتابٌ ينطق بالحق، فوالله لئن كنتُ نطقتُ بأمر أريده ما أريد به إلا الحقّ» قالوا: «قل نسمعْ يا أمير المؤمنين». فذكَر لهم وجهَ الخلاف، فأيدُوا رأيه، فقرر إبقاء الأرض بأيدي أهلها، وضرب الخَراجَ عليها، وسكت المخالفون اتباعًا للرأي الغالب.

هذا مثلٌ من تصرّف تلميذ الرسول وخليفته في أمر جاء به نصّ وهو نفسه يسلّم بهذا النص[3]،

---

(١) لعل عمر كان في ذلك مقتديًا بفعل رسول الله ﷺ في خيبر حين قسمها بين جنوده الفاتحين والدولة؛ فوزع نصفها عليهم، وأوقف الباقي على المسلمين، فاتخذ عمر استثناء الأرض من توزيعها على الفاتحين قاعدة لما فتح العراق والشام، فجعل الأرض كلها وقفًا على المسلمين جيلًا بعد جيل، وقد أخذ مالك بما فعل عمر في هذا، ولم يأخذ به الشافعي. (انظر: زاد المعاد لابن القيم (غزوة خيبر وما فيها من الأحكام).

(٢) جمع عِلْج، وهو: الواحد من كفار العجم.

(٣) وفي رواية عن الزهري ما يدل على أن عمر في استدلاله على ضرورة استثناء الأرض وعلوجها من التقسيم والتوزيع=

غلّب عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرأي الذي قضت به المصلحة العامة التي رآها ورأتها الأغلبية من عقلاء المسلمين أهلِ الشُّورى.

أكبر مهام الدولة

فالشريعة المحمدية لا تقف مكتوفة اليدين متى بانت المصلحة العامة، بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذي لن تتجاوزه.

فإقامة توازن اجتماعيّ يُرْفَع به شرُّ الحاجة عن المحتاج، ويستقيم معه العدل، والتأمين الاجتماعي هو أكبر مهامّ الدولة الإسلامية، ومسئولية الإمام وأهل الشورى في ذلك واضحة.

* * *

لا خصومة ولا نزاع متى خلصت النيات لله

والدعوة التي لا يتردد صاحبها وأتباعه في إقامة ميزان العدل الاجتماعي على أساس المصلحة العامة لا يمكن أن تقومَ الخصومةُ بين أنصارها على أساس المصالح الطائفية الدنيوية؛ فالمصلحةُ العامة لا تتجزأُ، والطوائفُ لا وجودَ لها متى كان الكلُ عبيدًا لله متساوين، وكانت مصلحةُ الكلِّ فوق مصلحة الفرد أو الطائفة.

قد يقالُ: إن أكثرَ ما يختلف عليه الناس يقوم على دعوة من المصلحة العامة، وإذًا فليس ما أتت به الدعوة المحمدية من ترجيحِ هذه المصلحة بكاف لمنع الخلافِ، وليست كلمةُ العدل ذاتَ معنى واحد عند الناس ليكون للعدلِ ميزانٌ ثابتٌ، وهو اعتراضٌ صحيح إذا كانت هذه المصلحةُ مطلقةً بغير حد، وكان هذا العَدلُ متروكًا لمجرد ظنِّ الناس، وذلك ما لم تتركْه الدعوة المحَمدية للهوى.

فالشريعة الإسلامية تستمدُّ تعاليمَها من الإيمان برب العالمين إله الناس جميعًا، الذي يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور، ومن الإحسان الذي يقصد به وجه الله.

فالجماعة المؤمنة إذًا لا تستطيع أن تترك رأيها للشهواتِ، والمصلحةُ العامة عندها واحدة تقوم على العمل الذي يُرْضِي خالق الناس جميعًا، فلها ضابطٌ من الوِجدان الطاهر البريء، والمصلحة العامة كذلك محدودة بما تقتضيه الأخوّة التي قررها الدين وجعلها شرطًا لتمامه: «لا يؤمِن أحدُكم حتى

على فاتحيها كان معتمدًا على ما يفهم من عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ...﴾ [الحشر: ١٠]، بعد سياق الآيات في سورة الحشر من قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ... ﴾ [الحشر: ٧]؛ إذ إن آية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عامة فيمن يأتي بعد من الذريات الذين رأى عمر أنه لا تحفظ مصالحهم ومصالح الدولة مع توزيع الأرض على فاتحيها.

يُحِبَّ لأخِيه ما يُحِبُّ لنفسِه»، «كلكم من آدم، وآدمُ من تراب»؛ فعنصرُ الأثَرَةِ منفيٌّ بالعقيدة، وفي هذه العقيدة أكبرُ ضمان.

الإيمان هو الحارس الأول على المصلحة

والمصلحةُ العامة أيضًا ليست موكولةً للصدْفة؛ لأن على الأعمال حسابًا يُقْتَضى من إله عليمٍ في الدنيا والآخرة، فهو يجازي الأممَ المسرفةَ المفرِّطة المتخاذلةَ في الدنيا، ويحاسبُ الناس على أعمالهم في الآخرة، والعدل هو الإنصاف بالحق موزونًا بالإخاء والمساواة، فليس عدلًا ما يتنافى مع الإخاء والمساواة.

وعليه فالدولة الإسلامية التي يكفلُ فيها الإمامُ التوازنَ الاجتماعيَّ والتي تقومُ على قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢]، لا محلّ ولا سبيل لنزاع الطبقات فيها.

قد يقال: إن ذلك صحيح ما دام خوفُ الله وطاعتهُ أصلًا في اعتبار المصلحة العامة، فما القولُ إذا ضاع الإيمان وفَسَد الوِجدان؟ والجوابُ أن ذلك هو ما أصاب العالمَ، وجرَّ هذه الويلاتِ على الحضارة الأوروبية، وجرَّها بالطبع على المسلمين والشرقيين منذ آمادٍ طويلة.

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية بما أوتيت من سَعة الأفق وحسنِ التقدير، قد فرضت كذلك مثل هذه الحال فأقامت الزَّجْر والتعنيف لرد الناس إلى الحق، حتى أباحت القتال لنصرة المظلوم، ووكلَت إلى وليّ الأمر إقامة الحق بالقوة؛ إذ لما ارتد العرب وأبوْا أن يدفعوا للفقراء حقوقهم قاتلهم أبو بكر وقال: «والله، لو منعوني عِقَالَ بعير كانوا يؤدُّونه لرسول الله لقاتلتُهم عليه»! فلم يَكِلْ أمرَ الفقير لوجدان الناس، وقاتلهم على حقه.

والشريعةُ المحمدية حين خَصَّصت بنص القرآن إيرادَ ضرائبِ الصدقاتِ للتأمين الاجتماعي ضدَّ صُنوفٍ من الحاجة لم تَكِل الناس إلى وجدان الإمام أو الدولة، وزادت على ذلك أن جعلت للإمام أن يفرضَ في أموالِ الناسِ بقدرِ ما يؤمِّنُ الحاجة، كما عليه التزاماتٌ لا مخلصَ منها لأصنافٍ من المصابين في المجتمع أشار القرآن إليهم، ولا بد له من أدائها من بيت مال المسلمين، ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء الأصنافِ أصنافٌ أخرى من ذوي الحاجة بالقياس؛ فعليه مثلًا علاجُ من لا عائلَ له من المرضى، وإرضاعُ من أبت أمُّه إرضاعَه، وإيواءُ من لا مأوى له، وإطعامُ من لا عملَ له، وإعانةُ القادر على العمل بتمكينه من العمل.

إلزام السلطان بمنع نزاع الطبقات وبالتأمين الاجتماعي

فالشريعة المحمدية لم تترك الأمر لوجدان الناس وحده، ولو أنها في الحقيقة كانت حكيمة في استخدام الوِجدان كأحسن أداة لعلاج المشكلة الاجتماعية.

وقد أشرنا إلى ضرائب الصدقات باعتبارها أداةً لمقاومة الفقر، وبالتالي علاجًا للمشكلة الاجتماعية، وأشرنا كذلك إلى حق الإمام في التشريع والاجتهاد برأيه بعد استشارة ذوي العقول والعلم من أهل الرأي، متوخيًا المصلحة العامة، وحائلًا بين الطبقات والطوائف وبين النزاع والتحاسد والبغضاء؛ فهذه الضرائب المقررة بنص القرآن والمباحة باجتهاد الإمام ورأي جماعة المسلمين أصل ثابت في مقاومة الفقر.

* * *

العنصر الروحي التهذيبي

وقد عولت الدعوةُ على الوجدان تعويلًا كبيرًا، وجعلت جزاءَ المحسنين الجنة، فنرى التحريضَ على إنفاق المال في سبيل المحتاجين إليه يتردد في آياتِ الكتاب في كل مناسبة، وفي أقوال الرسول في كل حين، وليس هذا مقامَ سَرْد عشراتِ الآيات وعشرات الأحاديث ويكفي قولُه تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣١].

والتربية المحمدية تهذيب يرمي إلى التكافل الاجتماعي، ويجعل الغرضَ من العمل والحياة البرَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل: ٩٠]، فكل شخصٍ حَسُنت تربيتُه فهو مهيأٌ تمامًا للخدمة الاجتماعية؛ وهذه التهيئةُ بالتربية المحمدية هي أفعلُ الوسائل في مقاومة آفات المجتمع، وأقدرُها على جمع الناس ومنع النزاع.

وإذا اعتبرنا ما ذكرنا من وسائل مقاومة المشكلة الاجتماعية أعمالًا إيجابية في الدعوة المحمدية لمنع حرب الطبقات، فإن الأسباب السلبية ليست أقلَّ أثرًا في هذا السبيل، فبينما نجدُ أن الدولةَ الإسلامية هي أكبرُ مؤسسةٍ للتأمين الاجتماعي، يرأسُها إمام المسلمين، ويقوم فيها أهلُ الشُّورى مقامَ مجلس الإدارة في الشركة، ونجدُ هذه الدولة تعمل لرفع مستوى العيش للطبقة المحرومة، نجد كذلك الدعوة المحمدية تقاوم بسلاح الإيمان والدين الإسرافَ والترفَ؛ لتنزل بمستوى البذَخ إلى مقام لا يثيرُ الحسدَ والضغينة، فتنعَى على المترَفين والمسرفين في شهواتهم، وتحذرهم سوءَ المصير وعذابَ الله والحرمانَ الأخرويَّ، بل لا تكتفي بذلك وتنذرُ المجتمعَ كلَّه بالويل لتركه مَسْرِفيه ومُترَفِيه دون رَدْع ولا زجر: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٥٨].

محاربة الترف والبذخ

وبيّن أن من أسباب الخراب الاجتماعي كثرة المترفين في الأمة ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا[1] مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

أحَلّت الدعوةُ الطيباتِ من الرزق، ولكنها حرَّمَتْ على الرجال لبْسَ الحرير والذهبِ كرمزٍ لبغضِها الترفَ والزينةَ الكاذبة، وأباحت للنساء الزينةَ، ولكنها قاومت غلوَّ المرأة بإعطاء القِوامة للرجال، وبمنعها من الظهور في تبرّج.

وما زالت الشريعة تَحُدّ من الإسرافِ والترف وبذَخِ العيشِ حتى ظن الناسُ أن ليس لغنيٍّ سبيلٌ إلى ملكوت السماء بغير الخروج من ماله، وصار التقشف رمزًا للتقوى.

الرسول الزاهد

ولقد كان رسولُ الله نفسُه على ما أوتي من سُلْطةٍ أكبرَ الزهاد، يقول ابنُ مسعود: دخلت على رسول الله وقد نام على حصير، وقد أثّرَ في جنبه، وقلتُ: يا رسولَ الله، لو اتخذنا لك وِطاءً نجعلُه بينك وبين الحصير يَقِيك منه؟ فقال: «مالِي وللدنيا! ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظلّ تحتَ شجرة ثم راح وتركها».

ويَرْوِي ابن هشام عن زيد بن أسلم: لما استعمل رسول الله ﷺ عَتّابَ بن أَسِيد على مكة رزقَه كلَّ يومٍ درهمًا، فقام أَسيد وخطَب الناس، فقال: أيها الناس، أجاع الله كَبِدَ من جاع على درهم! قد رزقني رسولُ الله درهمًا كلَّ يومٍ فليست لي حاجةٌ إلى أحد.

ورُوِي أن رسول الله دخل على فاطمةَ وفي يدها سلسلةٌ من ذهب، وهي تقولُ لامرأة عندها: هذه أهداها أبو الحسن ـ تقصد عليًّا زوجها ـ فقال ﷺ: «يا فاطمةُ، أَيَسُرُّكِ أن يقولَ الناسُ: ابنةُ رسولِ الله في يدِها سلسلةٌ من نارٍ»! ثم خرج ولم يقعد؛ فأرسلت فاطمةُ بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدًا فأعتقته، فحُدِّث رسول الله بذلك فقال: «الحمد الله الذي نجّى فاطمةَ من النار».

وكان دعاؤه ﷺ: «اللهم اجعل رزقَ آلِ محمدٍ كَفَافًا»، أي: لا يزيد عن الحاجة.

وعن أبي أُمامة الأنصاريّ قال: ذكروا عند النبي الدنيا فقال: «ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البَذاذَة من الإيمان، إن البذاذَة من الإيمان» أي: التواضع في اللباس والزينة.

---

(١) أي: أمرناهم بأوامر التقى، ونهيناهم عن الآثام والفسوق، والأمر في اللغة يشمل النهي.

المتاع الروحي أبقى

فالدعوة المحمدية قد قاومت الفقرَ والترفَ، فقاومت البغضَ والحسدَ، واستحال معها نزاعُ الطبقات. هَوَتْ بفضلِ الأموال والأحساب، وسَمَتْ بفضلِ التقوى والقناعة، وعوّضت الناسَ عن كثير من متاعهم الماديّ بمتاع رُوحي، فلا شك أن فاطمةَ حين باعت السلسلةَ وحررتْ العبدَ كانت تشعرُ بغبطةٍ وسرور كلما ذكرت فعلَها، أكثرَ مما لو أبقَتِ السلسلةَ في يدها.

وهل كان عمرُ غالبُ قيصر وكسرى، وهو في ثوبه المرقّع أقلَّ متاعًا بنفسه الراضية من المترَفِين الجبابرة في قصور قيصر وكسرى؟ كلا.

ولقد كان النجاح الذي أُوتِيَتْه الدعوةُ المحمدية في علاج المشكلة الاجتماعية بوسائلها السلبية والوجدانية أعظَم أثرًا في إصلاح المجتمع من وسائِلِها الإيجابية بضرائبِ الصدقاتِ أو كفالةِ الدولة للمحتاجين بسطوةِ السيفِ والقانون.

جمع بين المصحف والسيف

والدعوةُ التي استطاعت أن تجمعَ بين السيف والوجدان ليتسلطا في وقت واحد، ويسيرا في نهْجٍ واحد لغاية واحدةٍ هي مجاهدةُ آفات المجتمع، هيَ الدعوةُ الموفقةُ التي ستظل حيَّةً على مدى العصور.

* * *

النّزعات العنصرية والوطنية

العنصرية قديمًا وحديثًا

ولْنَنْظر الآن في سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمي، وهو الإفراط في النزعة الوطنية والعنصرية، وما ترتب عليها من الأَثَرَة وحبّ الانفراد بالعزة والسلطان وإنكار حقوق الآخرين، ثم النزاع والتسلح والحرب.

كان الناس يتنافسون قبائلَ ويتحاسدون ملوكًا، ويختلفون على الله أو في سبيل الله، ولم تكن نَعرة الوطن ولا نَعْرة العنصر فاصلًا حاسمًا بين المجموعات البشرية كما أرادَتها المدنية الحديثة. وتاريخ العرب والترك والبربر وغيرهم من الأقوام الإسلامية حافلٌ بالنزاع القبَلِيِّ، بعيدٌ عن النزاع العنصري، وكذلك كان الشأن في أوروبا، وكانت الأسرة المَلَكية تضم تحت رايتها باسم الوَلاء للمَلِك أو باسم الولاء للمذهب قبائلَ وشعوبًا تتّحد مصالحها، وإن اختلفت أصولها أو لغاتها، وأحيانًا عقائدها، وكثيرًا ما تكون هذه الأسرة غريبة، أو تكون من الأقلية القومية في الدولة، فتتكون تحت رايتها مجموعةٌ تربِطها القوانين وتتسع لأقلياتٍ شتّى تعيش تحت الراية، ينالها من الشقاء والسعادة مثلُ ما يصيب الجميع.

وكثيرًا ما تكون هذه الأقليات أرغبَ في هذه الراية والولاء لها منها لأقرب الأقوام والعناصر من جنسها أو لغتها تحت رايةٍ أخرى.

كان الأمر كذلك في كثير من الدول التي عاصرناها، كالدولة العثمانية تحت لواء آل عثمان، والدولة النمساوية ـ المجرية تحت لواء آل هبسبرج، وقد شاهدنا شعوبًا من العرب أشدَّ وَلاءً وإخلاصًا لدولة آل عثمان منهم لأمرائهم وأشرافهم من العرب.

وكان الأمر كذلك في الدول القديمة، وفي دول القرون الوسطى، كالدولة العباسية، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، والإمبراطورية البيزنطية، وكذلك عرفنا من الصقالبة في دولة النمسا من كانوا أوفى لها منهم لأبناء عمومتهم من الروس.

كذلك كان يَرْقَى سُلَّم المناصب كلُّ من سمحت له مواهبه وظروفه في خدمة الملك أو السلطان؛

فتجد البرامكة وآلَ طاهر الإيرانيين أعلى الناس مَقامًا في خلافة الهاشميين من العرب، وعائلة «كوبرلي زاده» من الأرنؤوط في خلافة العثمانيين من الترك، بل لقد صعد هذا السلّم من العبيد في الدول الإسلامية عدد أكثرُ بكثير مما تَأْذَنُ بهِ نسبتهم العددية، وبلغ الذروة من المماليك ما بين مصر والهند في الدول الإسلامية عشراتُ السلاطين ممن لا تزالُ آثارهم خالدةً في دلهي والقاهرة، وفي تلك الساحة الإسلامية العظيمة من الأطلسي إلى الهادي.

ولم يكن الناس يتساءلون عن عنصر ولا أصل، وإنما يتساءلون عن عمل وخُلُقٍ ودينٍ، فمن المماليك الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة في مصر والبلاد الإسلامية نجد الأرمني والروسيّ والصقلي والكرجي والشركسي والتتري والتركي والفرنجي والسوداني والحبشي، ولو تعقبنا أنسابهم لانكشفت لنا عن جميع ألوان البشر.

الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة

فلم تكن الوطنية بمعناها الحديث ولا القومية بعصبيّتها الحاضرة حدًّا فاصلًا بين الناس كما صارت في العصور الأخيرة. فالوطنية والقومية بمعناهما الحالي لم يكونا مع الأسف خطوة في سبيل الاستقرار، بل كانتا عاملًا لزيادة الاضطراب العالميّ، وسببًا جديدًا لنزاعٍ أوسعَ دائرةً وأعصى حلًّا.

أثر التشدد في الحدود الجغرافية والجنسية

فإن الوطن باعتباره مُقامًا جغرافيًّا لقومٍ من الأقوام لم يستطع أن يحدد حدودًا لجنسه من غير أن يصطدم بقوم آخرين وبانتشارهم، ولم تساعد الطبيعة إلا نادرًا على تحديد ساحة خاصة لعنصر خاص؛ ففي أوروبا كلِّها لا تجد إلا الجزر البريطانية(*) التي حددها البحر، ومع ذلك فلم تخلُ أيرلنده مع نزاع من بريطانيا على مقاطعة «ألستر» في شمال أيرلنده.

وقد مرَّ قرنان على الأقل على أوروبا، وقد غرقت في دماء حروبها لتعديل الحدود وتحرير الأقليات بين الفرنسيين والألمان، وبين هؤلاء والنمساويين؛ وبين هؤلاء وهؤلاء والصقالبة، وبين النمسا وإيطاليا، وبين البلقانيين جميعًا؛ وبينهم وبين الدولة العثمانية، وبين روسيا وجيرانها من الغرب أو الشرق أو الجنوب، وبين التشيك والپولنديين والمجر والرومانيين.

وهكذا نجد النزاع على ما يسمى الوطن وحدوده قائمًا لا يستقر، بل يتزايد على مدى الأيام، وعلى

(*) وفي الحقيقة، فحتى سكان الجزر البريطانية كانوا من الكلت، ثم تدفق عليهم الغزاة من كل حدب، ومن كل جنس ولون، بدءًا بالإمبراطورية الرومانية حتى القرن الميلادي الخامس، ثم القبائل الجيرمانية والإسكندنافية حتى قرن أو اثنين من بداية الألفية الثانية.

قدر الحِدَّة في العنصرية والوطنية. فما لم تكن الطبيعة بالمصادفة قد فَصَلتْ في الأمر ببحر أو جبل فلا بد من النزاع.

انتقال العصبيات الحادة إلى الشرق

وهذه المشكلة الأوروبية المستعصية، وما يتبعها من نزاع على الحدود ونزاع على العنصرية، وما تنطوي عليه من مشاكل الأقليات، أخذت تنتقل إلى الشرق نتيجةً لتأدبه بأدب الغرب، واعتناقه نظرية الوطن والقومية، فأخذنا نسمع في السنين الأخيرة بقضايا شبيهة بالقضايا البلقانية على سنجق الإسكندرونة بين سوريا وتركيا، وعلى شطِّ العرب والحدود بين العراق وإيران، ولم يكن المسلمون بتربيتهم المحمدية يتنازعون على مثل هذه القضايا باعتبارها مشاكل عنصرية، وستكون هذه المشاكل سببًا لبلاء الشرق كما كانت سببًا للحروب الدامية في الغرب؛ فيتنازع العرب والترك والكرد والشركس والأذربيجانيون والإيرانيون والأفغان والهند والأزبك والصين والمغول... إلى آخرهم، على الحدود والأقليات، حتى يَدْخُل الشرقُ جُحْرَ الضَّبِّ الذي دخله الغرب(*)!.

والوطنية بالعُرْف الحديث شرٌّ جديد، والعنصرية بلاء أعظم، ولا دواء لهما إلا بتهجير عشرات الملايين من منازلها الحالية، وحصر كل منها في نطاق جغرافي خاص.

نظريات اختلاف الدم

وقد أخذ بعض الأوروبيين يُسْرِف في الدعوة العنصرية، فغالَوْا في معناها واشتطُّوا في مرماها؛ فجعلوا عنصرًا سيّدًا نقيَّ الدم وآخرين دون ذلك، وهو أمر مُحالٌ لا وجود له، يزيد العالم اضطرابًا وخصامًا.

ومن ذا الذي يستطيع أن يَفْرِز الأقوام ويحلّل دماءها، ويكفي الناسَ شر الأقليات المذهبية واللغوية والقومية، ويَكفيَهم بلاء الحدود التي لم تَأْذَن بها الطبيعة ولا العقيدة والفكر؟

أضرار الهجرة الإجبارية

وقد جرّب اليونان والترك الهجرة الإجبارية، ولم يستفد منها اليونان ولا الترك، رغم ما صحِبها من اضطراب وقسوة في نزع الناس من منابتهم ومساقط رؤوسهم، على أن هذا التهجير الذي كان محدودًا، وساعدت عليه ظروف خاصة لا يمكن تعميمه كقاعدة، ومع ذلك فلو فرض أننا ضَمِنَّا جيلًا

(*) ما أصدق رؤية المؤلف ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ وصحة بصيرته... ولقد وضع كتابه هذا قبل البلاء الأكبر في الشرق الأوسط الذي دفعت ثمنه أجيال متلاحقة من المسلمين والعرب منذ ثلاثينيات القرن العشرين، إلى أن اغتصبت الدولة اليهودية فلسطين في عام ١٩٤٨، وإلى اليوم!

من الناس في سبيل هذه التسوية، فإن الأجيال الآتية كفيلة بنقض ما سوّينا؛ لأن طبيعة الحياة تستلزم النُّقلة، والمصالح تتبدل، والأقوام تنمو وتنقرض، فلا بد من اختلاط جديد وانتشار جديد، ولا بد من العودة إلى القسوة والتهجير الجبري.

بارود الحروب الحديثة

وقد حاولت عصبة الأمم حلًّا لمشكلة الأقليات فهل حلّتها؟ ألم تكن هذه المشكلة في السوديت واللوريين ودانزج وترنسلفانيا وبسرابيا والدبروجة من مسببات الحرب الأخيرة ومضخماتها؟.

ولقد كان الغلوُّ في معنى الوطنية والعصبية القومية عاملًا أساسيًّا في زيادة الاضطراب العالميّ، والتدرّج بالحروب من نزاع موضِعيٍّ إلى شرٍّ مستطير أبعدَ مدًى في الأرض، وأوسعَ دائرةً في الخطر، أو بعبارة أخرى متناسبًا مع الانتشار الكبير للأقوام، متناسبًا مع سهولة الانتقال الحديث، متناسبًا مع الغلوّ في الأفكار القومية والوطنية.

الإسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن

والدعوة المحمدية لا تعرف الوطنية والعنصرية بالمعنى الحديث؛ فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية، فهو يمتد مع العقيدة، بل هو في الحقيقة وطن معنوي كما أن الدين أمر معنوي، يقول الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦]، والمسلم أخو المسلم أينما كان، جاوره أم تباعدت به الأرض، والمسلم أينما حل في دولة إسلامية فقد حلَّ في وطنه، وإذا وجد في دار حرب بين جماعة معادِية للمسلمين فسقطت عنه بعض التكليفات أو سقط بعض ما لَه من حق، فإنه يكسب جميع الحقوق، وتكون عليه كل الواجبات بتحوّله عن داره، أو بدخول أهل هذه الدار، متى تغيرت الظروف بصلح أو ميثاق مع المسلمين، أو اشتراك في الدولة.

فالعنصرية أو العصبية للقبيلة أو الوطن أو اللون أو اللغة أو الثقافة تنكرها الدعوة المحمدية وتعتبرها دعوة جاهلية، يقول ﷺ: «ليس منا مَنْ دعا إلى عصبية»؛ فالإسلام يأبى كل عصبية لغير كلمة الله، ولا يعرف الولاء إلا للعلاقة الروحية، والناس من أي جنس أو لون أو وطن إخوان إذا اتفقوا في العقيدة، وولاؤهم إنما يكون لأمر معنوي لا لأمر مادّيّ، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويقول سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وضع العلاقات البشرية على أساس معنوي

وهذه نظرية قد وضعت أساس العلاقات البشرية على وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية؛ فهي بلا شكٍّ أسمى من النظرية الحديثة التي جعلت الجنسية أو المصلحة المادية أساس الولاء المشترك؛ لأن النظرية المحمدية تسمو بالبشر وتشرِّفه بالعقل والروح، بينما الأخرى تُهْبِطه إلى المادة فتشغل ناحية الحيوانيَّة منه، والعناية بحاجات الروح أدعى إلى السلم والاستقرار من العناية بحاجات الأبدان.

فنظرية الروح أسلم عاقبة وأدعى إلى السكون والتراحم.

خلاف أخف من خلاف

قد يقال إن ذلك معناه أنك ترجح أن يكون النزاع بين الناس على العقائد والرأي لا على البترول أو القطن، وذلك لا يغيّر كثيرًا من قيمة النزاع وشرّه، ولا ما ينشأ عنه من اضطراب وحروب عالمية. وذلك صحيح لأول وَهْلة، ولكن نظرةً في طبيعة الناس تعلّمنا أنهم أشد انفعالًا وأكثر تحفُّزًا للشر حيثما يكون الأمر متعلقًا بالمادة وماسًّا بحاجاتهم البدنية؛ فالفلاح يقتل جاره لسقية ماء يريدها لحقله، ولكن لا يخاصم هذا الجار على خلاف ديني أو مذهبي، ولم نسمع أن مثل هذا الخلاف يؤدي إلى القتل إلا في النادر الشاذ.

وتاريخ الدعوات الفكرية قد تصحبها الحدّة في بادئ الأمر، وينتهي شأنها إلى الاستقرار والحجة وسعة الصدر؛ لأن البشر لا يستطيعون التحمس للاعتداء والأذى إلا بحافز مستديم، والحافز المستديم هو حاجاتهم اليومية المرتبطة بمطالبهم المادية، وكثيرًا ما تكون حماستهم ثم فتكهم وهم يندفعون وراء فكرة سامية مشوبة بعامل خفي من مطالبهم البدنية.

ومع ذلك فالدعوة المحمدية قد احتاطت للأمر؛ فبعد أن أقامت العلاقات بين الناس على أساس وحدة الهدف المعنويّ، حرّمت على أنصارها أن يتوسلوا بالقوة لنشر الدعوة، يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

القوة ليست وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه

فالإسلام لا يَأْذَن باستخدام القوة إلا لضمان حرية الدعوة للناس جميعًا، وفرقٌ بين المطالبة بحق حرية الرأي وبين الإكراه على تغيير حرية الرأي.

وإذًا نستطيع أن نقرر أن الاضطراب العالمي القائم على دعوى الوطن الجغرافي، ودعوى القومية والعنصرية، ودعوى الحقوق المادية للوطن والعنصر يزول لو أننا اتخذنا من أصول الدعوة المحمدية

ومبادئها الدولية نظريتنا للعلاقات بين الأمم بسيادة الروح، التي تدعو إليها وتشاركها فيها الأديان السماوية الأخرى.

لا سيادة ولا عبودية

ولعل الناس يجدون في ذلك الهدى، ولعل في نظام العالم بعد الحرب الأخيرة، وبعد هذه العِبَر ما يقوم على تلك النظرية السامية البعيدة التي جعلت عمر بن الخطاب بعد أن بَعُد عن عصبية الجاهلية ونشأ في المدرسة المحمدية يقول: لو كان سالمٌ مولى أبي حُذَيْفَة حيًّا لولَّيْتُهُ. والتي يعبر عنها رسول الله بذلك القول المأثور: «أنا أخو كلِّ تقيٍّ ولو كان عبدًا حبشيًّا، وبَرِيءٌ من كل شقيٍّ ولو كان شريفًا قرشيًّا».

* * *

هزيمة القوى المعنوية

سبب آخرُ من أسباب الاضطراب العالمي، هو انهزامُ القوى المعنوية أمام القوى المادّية، أو بعبارة أخرى تخلُّف القُوَى المعنوية عن اللِّحاق بالتطور الفجائي للحياة المادّية، واختلالُ التوازنِ بين الرُّوح والمادَّة.

السيطرة على المادة وأثرها في طغيان المادية

وكان الناس وهم على الفطرةِ الأولى لا يسيطرون على المادةِ إلا سيطرةً محدودةً، ولا يطمعونَ في التغلبِ على الطبيعة طمعَهم بعد اكتشاف البخار والكهرباء، ونفاذِهم إلى القُوَى الكامنة في الذرَّة، وإلى عناصرِ المادةِ وتحويل تراكيبِ هذه العناصرِ، فلما افْتنُّوا في استخدام الكيمياء والميكانيكا، واستخرجوا من ذلك قوًى جديدةً، انصرفوا عما وراءَ الطبيعةِ وعن عالم الروح إلى قهرِ الطبيعة، والإيمان بالمادة وفِعْلِها دون سواها.

ففي أجيالٍ معدودة تغير وجهُ الحياة وانعكست وجهاتُ النظر، فلو خرج أجدادُنا من أجْداثِهم لاستنكروا حياةَ أهل الحضارة الجديدة استنكارَ سكان الكهوف لسكانِ ناطحات السحاب؛ فقد تغيرت أسبابُ العيش وتغيرتْ كيْفيّاتُه وتغيرت أغراضهُ، وانقلب الناسُ إلى السرعِة يطلبونَها وإلى الحركة الدائمة يستطيُبونَها، فنَفَرُوا من الدَّعةِ والسكون بقدر ما كان أجدادُهم ينفُرون من الضوضاء والسرعة.

تغيّر طَرْزُ الحياة فجأةً ولمّا يستقرْ، بل هو في تغّير مستمر؛ فالفرقُ بيني وبين أبي هو جيلٌ واحد[1]، ولكنه أعظمُ من الفرق بين أبي وبين آبائه قبل عشراتِ الأجيال.

سرعة التطور المادي وبطء التطور الروحي

هذا التغييرُ الماديُّ المستمر، وهذه السرعةُ التي لا تزالُ تتضاعفُ دون أن تبلغَ حدَّها الأقصى،

(١) ولد أبي حسن عزام في النصف الأول للقرن الماضي، ومات في أوائل هذا القرن (١٩٠٩)، وكان شيخًا ريفيًّا زعيمًا في قومه متفقهًا في الدين ممثلًا لمديرية الجيزة في مجالسها النيابية، وكان أبوه سالم عزام حاكم إقليم، أي: من بيئة متصلة بالدولة، ومع ذلك فإن الفرق بيننا ما ذكرت.

قد جعلت الإنسانَ وهو يلاحِقُ الحياةَ الماديةَ الجديدةَ يُغْفِلُ، أو لا يستطيع أن يحتفظَ بحياة معنوية مناسبة؛ فهو لا يستطيعُ أن يسايرَ هذه السرعةَ المتفجرةَ تفجُّرَ المادة إلى أجزائِها مسايرَةً يحتفظُ فيها بتُراثِه المعنوي، فتخلفت الحياةُ الرُّوحية التي كسبَها الناسُ في تجربةِ آلافِ السنين عن الحياة الماديةِ الجديدةِ التي كسبُوها في قرن واحد، وتطورت هذه الحياةُ تطورًا فجائيًّا، وبقي الإنسانُ مُثقَلًا بتراثٍ معنويّ ضخم لا يتحركُ معه فخلَّفَه وراءه.

تباعد الفروق بين الناس تبعًا لحظوظهم من العلم المادي

فنرى الناس مختلفي الحياة اختلافًا كثيرًا بعد أن كانوا في أطراف المعمورة تربطهم صلاتٌ معنويةٌ ومادية قوية، ولا تختلف نظرتُهم للحياة ولا كيفيةُ عملهم فيها إلا قليلًا، والفرق بين أبناءِ الجيلِ الواحدِ في بلدٍ واحدٍ أكثرُ مما كان من فرقٍ بين إنسانٍ في شمال أوروبا وآخرَ في وسطِ آسيا منذ بضعةِ قرونٍ، بل إن الفرق بيني هنا في القاهرة وبين بعض الفلاحين من أبناء عمومتي، وأنا لا أزالُ وثيقَ الصِّلة بأهلي. هو أكثرُ بكثير في طَرْزِ الحياة وطرزِ التفكيرِ مما كان بين أحدِ أجدادِي الأقربين وسكانِ المغربِ الأقصى أو الأفغان، ولا أظنُّ أن «ابنَ بطوطة» حين رحلَ من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى وجد من الفرق بين الناسِ ما يجدُه قَرَويٌّ لم يسبِقْ له زيارةُ القاهرة إذا جاء إليها من ناحية قريبة في الجيزةِ مثلًا؛ ففي الوطنِ الواحد أصنافٌ من الأمم تباعدت أفكارهُم وأخلاقُهم ومعنوياتُهم تباعدًا متناسبًا مع قدرتهم على ملاحقة الحياة المادية الجديدة؛ فمنهم من يركبُ في موكب الحياة المادّية المتحركة، ومنهم من يتعلقُ بمَرْكَبِها، ومنهم من يجري وراءَها، ومنهم من ينظر حائرًا، ومنهم من يَئس وقعد وانقطع.

فالذين ملكوا المادّةَ وصناعتَها، عليهم ـ وهم في موكبِ الحضارة ـ مَسْحةُ التجانسِ الظاهريِّ، ولو أن صلاتِهم الرُّوحيةَ أضعفُ جدًّا مما كانت، والمتخلفون أقلُّ تجانسًا.

بلبلة وشتات وتناكر

لقد صارت الأمم صنوفًا من الناس متقاطعةً، وصار البشرُ مشتتين في عالمٍ متناكرٍ تبلبلت فيه الأفكارُ، واختلّ العرفُ البشري، وتباعدت ألوانُ العيشِ المادِّي، وتكاثرت صورُه الذهنيةُ، وتناكرت الطبقاتُ والطوائف والأقوامُ، وكلما امتدّ دَوْر الانتقال تعددت مظاهرُ الأفراد والجماعات، واستعصى الرجوعُ بها إلى أصول مقبولة ومسلَّم بها من الجميع، أو مسلم بها على الأقل من كُتَلٍ كبيرة كانت تجمَعُها صِلاتٌ روحية قوية في عقائدَ دينية مشتركة تشمل مئاتِ الملايين من الخَلْق.

وما يُظَنُّ من أن الحياةَ الماديةَ القائمة على السرعة وسيلةٌ عاجلةٌ لجمع البشر على نظرةٍ موحدةٍ للحياة المادِّية، وعلى أسس معنوية مقبولة من الجميع، أمرٌ قد يكونُ في سبيل التحقيق، ولكنه لا يزالُ بعيدًا جدًّا، وسيَلْقَى العالمُ أهوالَ أدوار الانتقال والاستقرار، ولن يستطيعَ الناسُ أن يخلعوا

التراثَ المعنويَّ والفكريَّ كما يخلعونَ الثيابَ، ولذلك ها نحن أولاءِ نشهدُ تَشَعُّبَ الأفكار والآراء واضطرابَ الحياة.

ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة

ولا بد لنا من التفكير العاجل والعملِ السريع للتوفيق بقدر المستطاع بين الحياة المعنوية الموروثة وبين الحياة المادية المفاجئة، وتجنب أثر الصدمة التي تتولدُ منها هذه الانفجاراتُ الهائلةُ بين الأمم وبين الطبقات في الأمم، لا بد لنا كي نتمتع بثمار المدنية الآلية ونستكمل نعمتها، من بعث الحياة الرُّوحية بعثًا جديدًا مناسبًا للحياة المادِّية الجديدة. ففي هذه الحضارة نعمٌ لا حدّ لها؛ فقد تغلب الإنسان بالآلة والعلم على كثير من الصِّعابِ والوَيْلاتِ؛ زاد إنتاجهُ وسهُل انتقالُه، وقَهر الأمراض الجائحةَ، واتقى القحطَ، وتعددت مصادرُ لهوِه ومرحِه، وتزينت له الأرضُ وأخذت زخرفَها، ومشى في قرن واحد بالحضارة المادية ما لا يقاس معه مَشْيُه في القرون الماضية، ولكنه في قرن واحد كذلك قضى أو كاد يقضي على تراثه المعنوي الذي كسبه في عشرات القرون.

نَسِيَ الله فأنساه نفسَه؛ ففي جيل واحد هُزِمت حياةُ الروح هزيمةً نكراءَ أمام حياة المادّة، وأخذت الآلةُ الصمّاءُ وقد سيطرت تفتِكُ على غير هدى وبغير ضابطٍ من دينٍ أو خُلُقٍ أو عُرفٍ، وبَقِيَ تراثُ البشر المعنويُّ لا حَراكَ له، فشكَّ الناسُ في قيمته، وهم اليوم ينظرون إليه شِيعًا بعضُها يعطِف عطفَ الأحياء على الموتى، وبعضها يَشمَتُ شماتةَ الغالِب بالمغلوب، وبعضُها يُخلصُ له ولكنه في الاشتغال بحالِهِ يتخلّفُ عن موكبِ الحضارة السائرِ في عزّةِ المنتصر وزَهْوِه.

نِعَم تستحيل إلى نِقَم

والواقع أننا من غير تدبّر اندفعنا في سبيل قد حوّل النعم التي نتمتعُ بها إلى وسائل هلاك لنا ولحضارتنا؛ فبدَلَ أن نُنَاصِرَ القُوى المعنوية ونعطيَها من مجهودنا وهمتنا ما نعطي القوى المادية، أخذنا نزيّف آراءً ونخترعُ لها نظريات ونصدقُها، ولا نلبثُ أن نرتدَّ عنها، وها نحن أولاءِ بهذه الآراء الخطيرة نسيرُ للهلاك.

جرائم ترتكب باسم الحريات

فباسم حرية المرأة ندمّرُ هدوءَ المنزل وحياةَ الأسرة، وباسم حرية الوطن تمزّقُ الأوطانَ، وباسم حرية العمل وحرية رأس المال سنمحُو رأسَ المال ونستعبدُ الطبقات، وباسم مقاومة هذه الحريات سنفقدُ حرية الفرد وحرية الجماعة وحرية الرأي، ولم يكن أهلُ الرأي والعقل والعلماءُ والفلاسفةُ أقلَّ أثرًا في المجتمع البشري منهم في عصر سيطرة الآلة الذي نعيشُ فيه.

لا بد من ضوابط أدبية قبل الكارثة الكبرى

هذا ولا تزالُ هزيمةُ الأديان والعرف والأدب القائم على تجارب آلاف السنين لم تبلغ نهايتَها، فإذا بلغتها ولم يحلَّ محلَّها شيءٌ آخرُ يسنِدُ الحياةَ المعنويةَ والقوةَ الأدبيةَ فأيُّ ضابط يبقى لهذه الآلة الجامحةِ والقوى المتفجرة التي أطلقها الإنسانُ من عقال الطبيعة وعجز عن أن يوجهَهَا للخير وحده؟! فلا بد للعقلاءِ من صَيْحةٍ أرجو ألا تضيع في ضوضاء الآلة، لا بد للعقلاء من الصبر والكفاح في سبيل الحياة الرُّوحية، في سبيل أن تسايرَ القيمُ المعنويةُ القيم الماديّةَ، وأن تَزْدَوِج الحياتان لا أن تتنازعا وتتفارقا.

توفيق الإسلام بين الحياتين

ولقد كان الإسلام أبعدَ نظرًا حين دعا إلى هذا التزاوج فيما يؤثر من ميراثه، بقوله: «اعْمَلْ لدنياك كأنك تعيشُ أبدًا، واعْمَل لآخرتِك كأنك تموتُ غدًا»، والدنيا مطيّة الآخرة.

فلتكن الحَياةُ الماديةُ الفانيةُ التي تَغيرَ وجهُها في قرنٍ واحدٍ كلَّ هذا التغيرِ، مطيةً للحياة الخالدة الباقية حياة الفضيلة حياة الرحمة، قد يقول بعضُ الناس إنك تكادُ تُنْكِرُ الرقيّ الأدبيَّ والمعنويَّ الذي صاحبَ هذا التطورَ الماديَّ الفجائيَّ وتنكرُ نعمَ المدنية الجديدة. وإني لا أنكرُ شيئًا من فضلِها، ولكني أنعيَ هزيمةَ القُوى المعنويةِ وهزيمةَ العقل أمام الآلة الصماء المتحركة التي تحملُنا في جوفها وتَشملُنا بين أجزائها، وقيمُ الأشياء بآثارها والأعمال بنتائجها.

مدنيتنا تتحطم مرتين في ربع قرن

ونحن الذين شاهدنا ويلاتِ الحروب العالمية مرتين في ربع قرن أحقُّ الناس بالتساؤل عن القيمة الحقيقية للمدنية التي هذه بعضُ آثارها، ولنا كل الحق في أن نقفَ لنتدبَر ونَرْجعَ البصر كرَّتَيْنِ إلى القُوَى المعنويةِ للأديانِ، لعَلَّنا نَستمدُّ منها تسلُّحَ الوجدان البشري ضدَّ طغيان الآلة الصماء؛ لنرجع إلى تلك القوة المعنوية التي كانت توجهُنا إلى الخير العام بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١]؛ فجعلت هدَفَ الحياة هو فعلُ الخير ومقاومة الشر.

أتعمير للتخريب؟

أما أن يكون غَرَضُ الحياة الحصولَ على المواد الخامة، ثم تقديمها للآلة الصماء، ثم النزاع على الأسواق لتوزيع منتجات الآلة، ثم القتال على المادة كي تستمرَّ في حركتها، ثم نطلب المزيدَ فننتزعُ

لمنتجاتها الأوطانَ أسواقًا، ونفتحُ الأرض لمخزون الرِّكاز فيها، ويتقاتلُ عبيدُ الآلة من أجل السبق إلى حاجاتها، ثم ينتهي بنا الأمرُ إلى حروبٍ عالمية تُسَلَّطُ فيها قوى الآلة كلها لتدمير نفسها وتدمير الحضارة البشرية، فأمرٌ لا يمكنُ أن يدوم، وهو عندي من نتائج خذلان القوى المعنوية أو جمودها ومناصرة القوى المادية.

فلنرجع إلى منابع الهدى والرحمة في الأديان

نعم لنرجعْ إلى الأديان نستمدُّ منها الهدَى، ولْنُوَفّقْ بين هذه الأديان؛ لنستمدَّ من وفاقها القوة، لتتوازنَ الحياةُ المعنويةُ والحياةُ المادّية، ولكي تُوَجِّهَ الأولى الثانية في سبيل الخير العام، وقد دعانا الله إلى ذلك بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

تصوير للحرب تسخر منه العقول

ولتتصوروا مقدار الخطر من فقدان هذا التوازن ومقدار الحاجة إلى العقل والروح في أحسن عصور الحضارة المادية، تصوروا أنكم دُعِيتم لمشاهدة معركة للقطَطِ في جبل المقطم، وقد اصطفت القِطَطُ صفّين، ثم هجمت تتقاتل؛ ألا تضحكون عندئذٍ من القِطط؟ ألا تهزءون بعقولها؟ ألا تسخرون من سخفها؟ بل ألا تنقلبون من السُّخْرِ إلى الرثاء لها ثم البكاء لما أصابها...؟!

فإذا قيل لكم: إن قطط أحد القارّاتِ قد تعلمت علمًا يمكِّنُها من الحركة في السماء وتحت الماء والمخابرة والتفاهم مع قطط باقي الأرض بالأثير، وأنَّها استخدمت علمَها وكتبها وعقلها وأدبها، فجمعت قطط العالم لمعركة عَامَّة بينها، واتخذت ميدانًا للمعركة أوسع من جبل المقطم: سهول أوروبا والصين وجزر آسيا وجبال إفريقية وصحراءها، وكلَّ مكان تعيش فيه طائفة من القطط، وأنها حشدت كلَّ شيءٍ لدوام معركة لا نهايةَ لها، ثم علمتم أن القطط نجحت في خططها، ودعيتُم بصفتكم الإنسانية أو بصفتكم ملائكة هذه الأرض لتشهدُوا حيوانية القطط المتمدّنة المسيطرة على الكهرباء والكيمياء، أكنتم تسخرون من عقول القِطط؟ أم تُعْجبون بمدنيتِها وعلمِها؟ أم كنتم تبكُون لما أصاب القططَ من الضلالِ؟ أظنُّ أن الملائكةَ في السماءِ ورسل الله منا، الذين جاءوا بالهدى هم كذلك في السماءِ يبكون لما يصيبُ الناسَ في هذا العصر، وما أصاب القوى المعنويةَ من الهزيمة أمام الآلة الصماء.

أجهالات في مكان الكمالات؟

إن انهزامَ القوى المعنويةِ بسيطرة المادة هو انهزامُ العقل والمروءة والوفاءِ والفروسية والتقوى

والرحمة والقناعة، وإذا انهزم أولئك جميعًا حلّ الجهلُ والغدر والخيانة والأَثَرةُ والرياء والفَتْك محلَّها، واضطربَ لذلك النظامُ العالميّ.

أفلح من زكّاها

والدعوةُ المحمديةُ حين عُنِيت بالروحِ وتزكيتها، وحين وازنت بين مطالِبِ الدنيا ومطالبِ الآخرة، وأقامت الشريعةَ على ميزان من العدل تزنُ بين حاجات الروح وحاجات البدن، قاومت الطغيانَ الماديَّ؛ فمنعت سببًا من أسباب الاضطراب العالميّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

* * *

ثالوث الفساد

قلنا إن هناك أسبابًا أخرى للاضطراب العالمي قد تكون أقلَّ شأنًا، ولكنها عناصرُ هامّة كذلك في عدم الاستقرار إلى سلم دائمة وعلاقة حسنة بين الشعوب والأقوام.

آثار الثالوث في حياة الأفراد والأمم

والآن نتخيّر من الأسباب الكثيرة الأخلاقية أسوأها أثرًا في المجتمع البشريّ، وهي الغدر والكذب والنفاق، وهذه الصفات الثلاث على سوئها وضررها في حياة الأفراد، أبعدُ أثرًا وأعظم ضررًا في علاقات الأمم، ولذلك عُنِيت الدعوة المحمدية عناية كبيرة بمقاومتها في أخلاق الأفراد وصِلات الشعوب، وقد فَشَت مع الأسف الشديد هذه الصفات المذمومة بنسبة عكسية مع ضعفِ الحياة الروحية وسيطرة المادّة، وأصبح الناس لا يستحْيُون من الغدر استحياء آبائهم؛ لِما كان يصحَب الغدرَ من ضياع الشرف والهيبة، بل صار كثير منهم ينظر للغادر نظرتَه إلى الكيّس المبدِع في حسن التصرف، ويقيس فضله بنجاحه.

فلسفة سياسية خطرة!

غير عابئ بالوسيلة وإن كانت أخسَّ الوسائل، وإذا ضعف احترام الفضيلة وتقديرها لذاتها فشَا الغدرُ في صلات الشعوب، واضطربت العلاقات الدولية أيَّما اضطراب.

والمتعقب للسياسة الدولية في مدى نصف القرن الأخير يستطيع أن يشير إلى عشرات المواقف الغادرة، وقلّ أن يجد حلْقة نقية في سلسلة الغدر الخبيث، فالمفاجأة والنَّكْث بالعهود كادا أن يكونا القاعدة بعد أن كانا، حتى في الجاهلية وبعد أن انتشرت مع انتشار الإسلام والعرب آداب الفروسية في القرون الوسطى، من الصفات التي تَحُطّ من قدر الأفراد والشعوب، وتعرِّضها للزِّراية العامة.

آية قرآنية يفخر بها المسلمون

ولم يَزَل الكتابُ الكريم يُسَفِّه الغادرين، ويَحُضُّ على الوفاءِ، حتى جعل حق الميثاق فوق حق الدِّين كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق، وهذه الآية الجليلة: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ

﴿ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] تبقى أبد الدهر فخرَ المسلمين في حرمة العهود وحرمات الوفاء!

تشبيه بليغ!

وزراية القرآن على الغادرين في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ [النحل: ٩١ - ٩٢]، وتشبيهُه الغادرَ بالمرأة السفيهة تَنْقُض غَزْلها بعد أن أبرمته، مَثَلٌ بليغ للذين يعبثُون بعهودهم، يَهْوِي بهم إلى دَرْك السفاهة، تلك السفاهة التي يترتب عليها في الحقيقة اضطراب العالم كلّه إذا حلَّ الغدر محل الوفاء.

نصوص وحوادث

روى أبو سعيد الخُدْري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألَا إنه يُنْصَبُ لكل غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة بقدْر غَدْرَتِه، ولا غَدْرَةَ أَعظمُ من غَدْرة إمامٍ عامّةٍ».

وقد ضرب رسول الله المثل الأعلى للوفاء طولَ حياته، في صِلاته بالأفراد والجماعات، وبلغ من وفائه أنه سمع لنشيد حسان في مدح أحد قتلى بدر من أعداء النبي نفسه.

كان مُطْعِم بن عَدِيٍّ من أشراف قريشٍ المشركين، وكان رسول الله حين رجع من «الطائِف» بعد أن لَقِيَ من «ثَقِيفٍ» مُنكر القول والفعل، قد طلب جِوار بعض رؤساء مكة ليدخلها آمِنًا على حياته، فأبَوْا وقَبِلَ مطعمٌ أن يدخلها في حمايته، فلما كانت واقعة بدر بعد ذلك، ودرات الدائرة على قريش، وقتل نفر من صناديدها، كان بين القتلى مطعم بن عدي، وفيه يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول:

أيا عينُ فـابْكِي سيد القوم واسفَحِي ... بدمعٍ وإن أَنْـزَفْـتِـه فـاسـكُبِي الـدَّمَـا!
وَبكِّي عظيمَ المَشْـعَـرَيْن كِـلَيْـهـما ... عـلى الـنـاس مـعروفٌ لـه مـا تَكَتَّمـا
فلو كان مجدٌ يُخْلِدُ الـدهـرَ واحـدًا ... مـن الـنـاس أبقى مجدُه اليومَ مُـطعِـمَـا
أجـرتَ رسـولَ الله منهم فأصبحوا ... عـبـيـدَكَ مـا لـبّى مُـهِـلٌّ وأحْـرَمَـا
فـلـو سُـئِـلـتْ عـنه مَـعَـدٌّ بأسْـرِها ... وقَـحْـطـانُ أو بـاقـي بـقـيـةِ جُـرْهُـمـا
لقالـوا هـو المُـوفِي بجيرة جـارِه ... وذمّـتِـه يــومًـا إذا مـا تــذمَّـمـا
فما تطلُعُ الشـمـسُ المنيرةُ فوقهـم ... عـلى مـثـلِـه فـيـهـم أعــزّ وأعظمـا!

مات مطعم مشركًا مقاتلًا الرسول، ولكن الوفاء في هذا المَثَل يرثي فيه حسان عدوًا مشركًا، والرسولُ يسمع ولا يُنكر، يدل على أنه ﷺ أنزل الوفاء في مكان من القداسة لا يُنْزِلُه عنه خلاف في الدِّين ولا قتالٌ وعَداء؛ فالرسول حين يسمع إلى شاعره يبكي المروءة في عدو هو أحد صرْعَىَ القتال من المشركين المعتدين يَسُنُّ لنا في الرجولة والمروءة والوفاء مثلًا قد علا فوق كل شيء، ويحُطّ من صفة الغدر إلى الدرْك الذي لم يصل إليه أحدٌ قد بقي له من الإيمان والخُلُق شيء.

وقد روت عائشة أن عجوزًا جاءت إلى النبي فقال لها: من أنتِ؟ فقالت: جَثَّامة المُزَنِيَّة. فقال: أنت حُسَّانة! كيف أنتم؟ كيف حالُكم؟ كيف كنتم بعدَنا؟ قالت: بخير، بأبي أنت وأمّي! فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال! قال: «إنها كانت تأتينا زمنَ خديجة، وإن حُسْنَ العهد من الإيمان».

فلو أن العالم دان بما تريده الدعوة المحمدية، واعتبر حسن العهد من الإيمان لوفّر على نفسه ويْلات كثيرة.

* * *

الغدر غير الخدعة في الحرب

قد يبدو الغدر أول وَهْلة وسيلةً من وسائل الظفَر، وطالما تحدث الناس بأن الحرب خُدْعة، وشتّان بين الخيانة والنكْث بالعهد أو المفاجأة والأخذ على غِرّة وبين الخدعة في القتال؛ فالخدعة حيلة يعرف الخَصم أنه معرَّض لها وليس له وعد باجتنابها، وهي دائمًا في حدود الحرب المرعيّة، وقد تحدثنا عنها من قبل، فإذا ألقيْتَ في رُوعِ العدوّ أنك ستأتيه بكامل قوتك من ناحية ولم تبعث إليها إلا الأقل، وحولت الكثرة لناحية أخرى، فليس هذا غدرًا وإنما هو خدعةٌ لا تتنافى مع الأخلاق، ما دام البشر يعتبرون الحرب لا تتنافى مع المروءة وحسن الخلق.

قبح الغدر حتى بين الأشقياء

حكى لي أحد أشقياء البدو عن شيخ كبير من البدو أنه غدر به بعد أن وعد ألا يدلّ عليه، والغدر مَنْقَصة حتى بين الأشقياء، فسألت عما يقول الشيخ في ذلك، فقيل إنه قال: «الخُونَة عُونَة»، أي: أن الخيانة مما يستعان به، وقد أنكر الناس ذلك على الشيخ البدوي أشد الإنكار.

وها نحن أولاء مع الأسف نشهد مبدأ «الخونة عونة» الذي يقول به شيخ من قُساة البدو، والذي ينكر الناس اتخاذه مع شقيٍّ من الأشقياء في حادث سلب أو نهب، يفشو في علاقات الأمم الكبيرة

فتغدِرُ وتفاجئ لتفتِكَ في غفلة، متجاهلةً حرمة العهود وحُرُمات المروءة؛ فكما أن مبدأ «الخونة عونة» جعل الحياة قديمًا بين بعض القبائل في اضطراب مستمر فسلبها الأمن، فهو بين الأمم المتحضرة يمد هذا الاضطراب بالوقود.

الله لا يهدي كيد الخائنين

ولا أظن أن اتخاذ الغدر وسيلةً من وسائل الظفر أدى للغادرين خدمة جليلة في زمن من الأزمان؛ فهو قد يُكْسِبهم المعركة الأولى، ثم يرتد عليهم، ولا بد أن يتحقق في الغادرين قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

واتخاذ الخيانة وسيلة للظفر في علاقات الشعوب يؤدي قطعًا إلى التربص وسوء الظن؛ فيفقد الناس نعمة الأمن في السلم والحرب، وها هو ذا الجيل الحاضر يكتوي بويْلات الحرب ليخرج منها إلى الخوف والاستعداد لحروب أخرى، ذلك هو الجزاء السماوي، ولذلك يحرص الإسلام على الوفاء حتى مع الغادرين، فوفاء بغدر خيرٌ من غدر بغدر.

الكذب والنفاق في السياسة

أما الكذب والنفاق فلا نقول إن الناس أكثر تحَرِّيًا للإخلاص والصراحة مما كانوا، ولا إن الكذب من الأخلاق التي ظهرت في العهد الآليّ بأسوأ مظاهره، ولكنا لا نستطيع كذلك أن نقول إن الصدق أكثر حرمة منه فيما مضى، وإنما الذي نعنيه في هذا العصر هو الكذب في السياسة، ونستطيع أن ندَّعِيَ أن الكذب والرياء من عناصر الاضطراب في العلاقات الدولية أكثر مما كانا في الماضي.

المكيافيلية ينكرها الإسلام

فمكيافلي في كتاب «الأمير» مثلًا يجهر بنظريات لا ترتضيها قواعد الأخلاق والمروءة، والناس الآن يطبقون آراء «مكيافلي»، وليس لهم صدقهُ في إعلان رأيه، وعندي أن كتاب «الأمير» نفسه دليل على أن الناس في العصور الوسطى كانوا أقرب إلى الصدق، منهم في العصر الذي يستنكرون فيه المكيافلية ويعملون بها.

سياسة الوضوح

وهذا الكذب والنفاق في السياسة الذي يظنه بعض الناس مبرِّرًا ويَفْتَنُون في تزويقه وتنميقه ويَعُدُّونه لازمًا للدبلوماسية، يبغضه الإسلام وينفر منه، وتاريخ الفتوحات الإسلامية مثلٌ باقٍ من الصدق والجهر بالحق للعدو والصديق، وسِيَرُ الخلفاء الذين يمثلون الدعوة المحمدية، والذين لم يقعوا

في أساليب الفرس وأساليب بيزنطة، تفيض ببساطة الصدق ووضوح الحق؛ فإذا قالوا أو كتبوا أو عاهدوا هم أو سفراؤهم أو وُلاتُهم، وجدت قولًا واضحًا يتحرى أن يكون بعيدًا عن التأويل جليًّا لا ينمّقْ ولا يمارِي، يقول رسول الله: «أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلُقه».

وقد أراد الإسلام في جميع العلاقات بين الناس فردية أو دولية ذلك الوضوح، فتجده مطلوبًا في كل شيء، وعدمُ الوضوح في العقود وتعريضُها للتأويل والمشاحَنة كان سببًا في تحريم كثير منها.

صفتان أدنأ من الكفر

ويكاد القارئ لكتاب الله وأحاديث رسوله يحكم بأن الكذب والنفاق أحط من الكفر؛ فقد لعن الكاذبين، وجعل المنافقين في الدرْك الأسفل من النار، ولأول وَهْلةٍ قد لا يدرك الإنسان حكمة هذه الشدة، فإذا نظر في أثر النفاق من الناحية العامّة، وتجاوز برهةً أثرَه على المنافق نفسه، وجد أنه عنصر جوهري في فساد النظام العالَمِيّ.

وليظهر ذلك أرجو أن تفكروا فيما نحن فيه من اضطراب عالميّ؛ أليس النفاق من أهم أسبابه؟ ولو كان القائمون على «جمعية الأمم» مثلًا ـ وقد اشترك فيها أو في تأسيسها كل الذين اقتتلوا في الحرب العالمية الأولى ـ قد بَنَوْا مؤسستهم على الصدق وعلى الإخلاص أكانت تنهار كما انهارت؟ أكان انهيارها يجر إلى هذا الفساد الكبير الذي وقع في الحرب العالمية الأخيرة؟ ولو أن الدعوة التي يدعيها الناس من حب الخير العام، ولو أن الحرمة التي للحقوق البشرية كانت حقيقية في نفوسهم، وكانوا صادقين غير مرائين، أكان الناس يختلفون على معنى هذه الحقوق وعلى معنى الخير العام كما يختلفون اليوم؟.

* * *

أسماء على غير مسمياتها

إن النفاق قد ألْبَسَ الأمرَ على الناس، فإذا قيلت هذه الكلمات المحبوبة: الحرية، المساواة، العدل بين الناس، حق الجميع في عيش سعيد وسلم دائمة، إذا قيلت، ظنوا أن المقصود غيرُ ما قيل، والتبس الحق بالباطل.

وأثر النفاق، وإن قل شأنه في علاقة فرد بفرد، يتضاعف أضعافًا كثيرة إلى أن يصير شرًّا مستطيرًا إذا اتخذته الدول وسيلة من وسائل الظفَر في سياسة شعوبها، أو في علاقاتها بدول أخرى.

والسياسة التي تستند على الغدر والكذب والنفاق تحرّمها الشريعةُ المحمدية، وتأباها الأديان السماوية كلها؛ لأنها تغذِّي الاضطراب العالميّ، وتعين على تقويض العمران.

* * *